بسم الله الرَّحْمَن الرَّحِيم

ـ [الفصـل الرابـع] :

ـ ﴿ ۞ مـن بـدائـع مقـامـات البلغـاء ۞ ﴾ ـ

ـ ❖ مقامات بديع الزَّمان ❖ ـ :

أبو الفضل أحمد بن الحسين بن يحيى

بديع الزَّمان الهمذانيُّ

ـ « المتوفى سنة ٣٩٨هـ » ـ

« ـ الْمَقَامَةُ الْقَرِيضِيَّةُ :

حَدّثَنَا عِيسَى بْنُ هِشَامٍ ؛ قَالَ :

طَرَحَتْنِي النّوَى مَطَارِحَهَا ، حَتّى إِذَا وَطِئْتُ جُرْجَان الأَقْصى ؛ فاسْتَظْهَرْتُ عَلَى الأَيَّامِ بِضِياعٍ ، أَجَلْتُ فِيهاَ يَدَ الْعِمَارةِ ، وَأَمْوَالٍ وَقَفْتُهَا عَلى التّجَارَةِ ، وَحَانُوتٍ جَعَلْتُهُ مَثَابَة ، وَرُفْقَةٍ اتّخَذْتُهَا صَحَابَة ، وَجَعَلْتُ لِلْدّارِ ، حَاشِيَتَي النّهَار ، وللحَانُوتِ بَيْنَهُمَا.

فَجَلَسْنَا يَوْماً نَتَذَاكَرُ القرِيضَ وَأَهْلَهُ ، وَتِلْقَاءَنا شَابّ قَدْ جَلَسَ غَيْرَ بَعِيدٍ يُنْصِتُ وَكَأَنّهُ يَفْهَمُ ، وَيَسْكتُ وَكَأَنّهُ لاَ يَعْلَمُ !!.

حَتّى إِذَا مَالَ الكَلاَمُ بِنَا مَيْلَهُ ، وَجَرّ الْجِدَالُ فِينَا ذَيْلَهُ ، قَالَ : قَدْ أَصَبْتُمْ عُذَيْقَهُ ، وَوَافَيتُمْ جُذَيْلَهُ ، وَلَوْ شِئْتُ لَلَفْظْتُ وَأَفَضْتُ ، وَلَوْ قُلْتُ لأَصْدَرْتُ وَأَوْرَدْتُ ، وَلَجَلَوْتُ الْحقّ فِي مَعْرَضِ بَيَانٍ يُسْمِعُ الصُّمَّ ، وَيُنزلُ الْعُصْمَ.

فَقُلْتُ: يَا فَاضِلُ ! أَدْنُ فَقَدْ مَنَّيْتَ، وَهَاتِ فَقَدْ أَثْنَيتَ.

فَدَنَا؛ وَقَالَ: سَلُونِي أُجِبْكُمْ، وَاسْمَعُوا أُعْجِبْكُمْ.

فَقُلْنَا: مَا تَقُولُ فِي امْرِىءِ الْقَيسِ ؟.

قَالَ: هُوَ أَوَّلُ مَنْ وَقَفَ بِالدِّيارِ وَعَرَصَاتِهَا، وَاغْتَدَى وَالطَّيرُ فِي وَكَنَاتِهَا، وَوَصَفَ الْخيلَ بِصِفَاتِهَا، وَلَمْ يَقُلِ الشِّعْرَ كَاسِياً، وَلَمْ يُجِدِ القَوْلَ رَاغِباً، فَفَضَلَ مَنْ تَفَتَّقَ للْحِيلةِ لِسَانُهُ، وَانْتَجَعَ لِلرَّغْبَة بَنَانُهُ.

قُلْنَا: فَما تَقُولُ فِي النَّابِغَةِ ؟.

قالَ: يَثلِبُ إِذَا حَنِقَ، وَيَمْدَحُ إِذَا رَغِبَ، وَيَعْتَذِرُ إِذَا رَهِبَ، فَلاَ يَرْمي إِلاَّ صَائِباً. قُلْنَا: فَمَا تَقُولُ فِي زُهَيرٍ ؟.

قَالَ يُذِيبُ الشِّعرَ، والشعْرُ يُذيبَهُ، وَيَدعُو القَولَ، وَالسِّحْرُ يُجِيبُهُ.

قُلْنَا: فَمَا تَقُولُ فِي طَرَفَةَ ؟.

قَالَ: هُوَ مَاءُ الأشْعَارِ وَطِينَتُها، وَكَنْزُ الْقَوَافِي وَمَدِينَتُهَا، مَاتَ وَلَمْ تَظْهَرْ أَسْرَارُ دَفَائِنِهِ؛ وَلَمْ تُفْتَحْ أَغْلاَقُ خَزَائِنِهِ.

قُلْنَا: فَمَا تَقُولُ فِي جَرِيرٍ وَالْفَرَزْدَقِ ؟ أَيُّهُمَا أَسْبَقُ ؟.

فَقَالَ: جَرِيرٌ أَرَقُّ شِعْراً، وَأَغْزَرُ غَزْراً؛ وَالْفَرَزْدَقُ أَمْتَنُ صَخْراً، وَأَكْثَرُ فَخْراً، وَجَرِيرٌ أَوْجَعُ هَجْواً، وَأَشْرَفُ يَوْماً، وَالْفَرَزْدَقُ أَكْثَرُ رَوْماً، وَأَكْرَمُ قَوْماً، وَجَرِيرٌ إِذَا نَسَبَ أَشْجَى، وَإِذَا ثَلَبَ أَرْدَى، وَإِذَا مَدَحَ أَسْنَى، وَالْفَرزدقُ إِذَا افْتَخَرَ أَجْزَى، وَإِذَا احْتَقَرَ أَزرَى، وَإِذا وصَفَ أَوفَى.

قُلنَا: فَمَا تَقُولُ فِي المُحْدَثِينَ منْ الشُّعَراءِ والمُتَقدِّمينَ مِنهُمْ ؟.

قالَ: المُتَقدِّمونَ أَشْرفُ لَفْظاً، وَأَكثرُ منْ المَعَاني حَظاً، وَالمُتَأَخِّرونَ أَلْطَفُ صُنْعاً، وَأَرَقُّ نَسْجاً.

قُلْنا: فَلَو أَرَيْتَ مِنْ أَشْعارِكَ، وَرَوَيْتَ لَنا مِنْ أَخْبارِكَ ؟.

قالَ: خُذْهَما في مَعْرِضٍ واحِدٍ، وَقالَ:

أَمـا تَـرَوْني أَتَغَـشَّى طِـمْـرَا
مُـمْتَطِياً فـي الـضُّـرِّ أَمْـراً مُـرَّا
مُـضْطَبِناً عَـلى اللَّيالـي غِمَرا
مُلاقِـياً مِنْهـا صُـرُوفاً حُـمْـرَا
أَقْصَى أَمانِيَّ طُلُـوعُ الشِّعْـرى
فَقَـد عُـنِينَا بِالأَمَـاني دَهْـرَا
وَكـانَ هـذَا الحُـرُّ أَعْلى قَـدْرا
وَمـاءُ هـذَا الـوَجْـهِ أَغْلى سِعْرَا
ضَـرَبْتُ لِلسَّـرّا قِبَـاباً خُضْـرَا
فِـي دَارِ دَارَا وَإِوَانِ كِـسْـرى
فَانْقَلَبَ الـدَّهْـرُ لِبَطْنٍ ظَهْـرا
وَعَادَ عُـرْفُ العَيْشِ عِنْدي نُكْرَا
لَـمْ يُبْـقِ مِـنْ وَفْـرِيَ إِلاَّ ذِكْـرَا
ثُـمَّ إِلى اليَـوْمِ هَـلُـمَّ جَـرَّا
لَـوْلا عَـجُـوزٌ لِي يِسُـرَّ مَنْ رَا

وَأَفْـرُخٌ دونَ جِـبَـالِ بُـصْـرَى
قَـدْ جَلَـبَ الـدَّهْـرُ عَلَيْهِـمْ ضُـرًّا
قَتَلْـتُ يَا سَـادَةُ نَفْسِي صَبْـرَا

قَالَ عِيسَى بْنُ هِشَامٍ، فَانَلْتُهُ مَا تَـاحَ ؛ وَأَعْـرَضَ عَنَّا فَـرَاحَ ؛ فَجَعَلْـتُ أَنْفِيهِ وَأُثْبِتُهُ، وَأَنْكِرُهُ وَكَأَنِّي أَعْرِفُهُ !!، ثُمَّ دَلَّتْنِي عَلَيهِ ثَنَايَاه، فَقُلْتُ: الإِسْكَنْدَرِيُّ وَاللَّه !!، فَقَدْ كَانَ فَارَقَنَا خِشْفاً، وَوَافانا حِلْفاً !!.

وَنَهَضْتُ عَلى إِثْرِهِ، ثُمَّ قَبَضْتُ عَلَى خِصْرِهِ، وَقُلْتُ: أَلَسْتَ أَبَا الفَتْحِ ؟! ؛ أَلَمْ نُرَبِّكَ فِينا وَلِيداً وَلَبِثْتَ فِينا مِنْ عُمُرِكَ سِنِين ؟! ؛ فَأَيُّ عَجُوزٍ لَكَ بِسُرَّ مَنْ رَا ؟!. فَضَحِكَ إِلَيَّ وَقَالَ:

وَيْحَكَ هذَا الزَّمَانُ زُورُ
فَـلا يَـغُـرَّنَّكَ الـغُـرُورُ
لاَ تَلْتَـزِمْ حَـالَةً، وَلَكِـنْ
دُرْ بِاللَّيَـالِي كَمَـا تَـدُورُ. ».

.....

ـ ❖ : مقامات أبى محمد الحريرىُّ ❖ ـ :

أبو محمد القاسم بن علي الحريرىُّ

ـ « المتوفى سنة ٥١٦هـ » ـ

« ـ المقامة الصنعانيَّة :

حدّثَ الحارثُ بنُ هَمّامٍ ؛ قالَ :

لّما اقتَعـدْتُ غـارِبَ الاغتِـرابِ. وأنْـأتْني المَترَبَـةُ عـنِ الأتْـرابِ ؛ طوّحَـتْ بـي طَـوائِحُ الـزّمَنِ ؛ الى صـنْعاء الـيَمَنِ ! ؛ فـدَخَلْتُها خـاويَ الوِفـاضِ، بـاديَ الإنْفاضِ، لا أمْلِكُ بُلْغَـةً، ولا أجِـدُ في جِرابـي مُـضْغَةً ! ؛ فطَفِقْـتُ أجـوبُ طُرُقاتِها مِثلَ الهائِمِ، وأجولُ في حَوْماتِهـا جَـوَلانَ الحـائِمِ، وأرُودُ في مَسارحِ لَمحاتي ، ومَسايحِ غدَواتي ورَوْحاتي ؛ كريماً أُخْلِقُ لهُ ديبـاجَتي، وأبوحُ إلَيْـهِ بحاجتي، أو أديباً تُفَرّجُ رؤيَتُه غُمّتي، وتُـرْوي رِوايتُـه غُلّتي ؛ حتـى أدّتْـني خاتِمَةُ المَطافِ، وهدَتْني فاتِحةُ الألْطافِ، إلى نادٍ رَحيبٍ، مُحتَوٍ على زِحامٍ ونَحيـبٍ ! ؛ فولَجْتُ غابـةَ الجمْـعِ، لأسْبُرَ مَجْلَبَـةَ الـدّمْعِ ؛ فرأيـتُ في بُهْـرَةِ الحَلْقَةِ ، شخْصاً شخْتَ الخِلْقَةِ، عليْـهِ أُهْبَـةُ الـسّياحَةِ، وله رنّـةُ النِّياحَـةِ، وهوَ يطْبَعُ الأسْجاعَ بجواهِرِ لفظِهِ، ويقْرَعُ الأسْماعَ بزَواجِرِ وعْظِهِ، وقدْ أحاطَتْ بهِ أخلاطُ الزُّمَرِ، إحاطَةَ الهالَةِ بالقَمَرِ، والأكْمامِ بالثّمرِ ؛ فدَلَفْتُ إليهِ لأقْتَبِسَ مـن فوائِـدِه، وأَلْـتَقِطَ بعْـضَ فرائِـدِه ؛ فـسمِعْتُهُ يقـولُ حـينَ خـبّ في مجالِه، وهَدَرَتْ شَقاشِقُ ارتِجالِه :

أيّها السّادِرُ في غُلَوائِهِ ! السّادِلُ ثوْبَ خُيَلائِهِ. ! الجامِحُ في جَهالاتِهِ ! الجانِحُ الى خُزَعْبِلاتِه ! إلامَ تسْتَمرُّ على غَيّكَ ؟ ! وتَستَمْرِئُ مرْعَى بغْيكَ ؟ ! وحَتّامَ تتَناهَى في زهوِكَ ؟ ! ولا تَنْتَهـي عـن لَهـوِكَ ؟ ! تُبـارِزُ بمَعـصِيَتِكَ ؛ مالِكَ ناصِيَتِكَ ؟ ! وتجْتَرِئُ بقُبْحِ سيرَتِك ؛ على عالِمِ سَريرَتِكَ ؟ ! وتَتَوارَى عَـن قَريبـكَ ؛ وأنـتَ

بمَرْأى رَقيبكَ ؟ ! وتَستَخْفي مِن مملوكِكَ ؛ وما تَخْفى خافِيَةٌ على مَليكِكَ ؟ ! أتَظُنُّ أنْ ستَنْفَعُكَ حالُكَ ؛ إذا آنَ ارتِحالُكَ ؟ ! أو يُنْقِذُكَ مالُكَ ؛ حينَ توبِقُكَ أعمالُكَ ؟ ! أو يُغْني عنْكَ نَدَمُكَ ؛ إذا زلّتْ قَدَمُكَ ؟ ! أو يعْطِفُ عليْكَ معشَرُكَ ؛ يومَ يضُمّكَ مَحْشَرُكَ ؟ ! هلاّ انتَهَجْتَ مَحَجّةَ اهتِدائِكَ ؛ وعجّلْتَ مُعالجَةَ دائِكَ ؛ وفَلَلْتَ شَباةَ اعتِدائِكَ ؛ وقدَعْتَ نفْسَكَ فهِيَ أكبرُ أعدائِكَ ؟ ! أما الحِمام ميعادُكَ ؛ فما إعدادُكَ ؟ ! وبالمَشيبِ إنذارُكَ ؛ فما أعذارُكَ ؟ ! وفي اللّحْدِ مَقيلُكَ ؛ فما قِيلُكَ ؟ ! وإلى الله مَصيرُكَ ؛ فمَن نصيرُكَ ؟ ! طالما أيْقَظَكَ الدّهرُ فتَناعَسْتَ ؛ وجذَبَكَ الوعْظُ فتَقاعَسْتَ !! ؛ وتجلّتْ لكَ العِبَرُ فتَعامَيْتَ !! وحَصْحَصَ لكَ الحقُّ فتمارَيْتَ !! وأدْكَرَكَ الموتُ فتَناسَيتَ !! وأمكنَكَ أنْ تُؤاسِي فما آسيْتَ !! ؛ تُؤثِرُ فِلساً توعِيهِ ؛ على ذِكْرٍ تَعيهِ ؟ ! وتَختارُ قَصْراً تُعْليهِ ؛ على بِرٍّ تُولِيهِ ؟ ! وتَرْغَبُ عَنْ هادٍ تَسْتَهْدِيهِ ، إلى زادٍ تَستَهْديهِ ؟ ! وتُغلّبُ حُبّ ثوبٍ تشْتَهيهِ ؛ على ثوابٍ تشْتَريهِ ؟ ! يَواقيتُ الصّلاتِ ؛ أعْلَقُ بقَلبِكَ منْ مَواقيتِ الصّلاةِ ؟ ! ومُغالاةُ الصَّدُقاتِ ؛ آثَرُ عندَكَ من مُوالاةِ الصَّدَقاتِ ؟ ! وصِحافُ الأَلْوانِ ؛ أشْهى إلَيْكَ منْ صَحائِفِ الأدْيانِ ؟ ! ودُعابَةُ الأقْرانِ ؛ آنَسُ لكَ منْ تِلاوَةِ القُرْآنِ ؟ ! تأمُرُ بالعُرْفِ وتَنتَهِكُ حِماهُ ؛ وتَحْمي عنِ النُّكْرِ ولا تَتحاماهُ ؟ ! وتُزحزِحُ عنِ الظُّلْمِ ثمْ تغْشاهُ ؟ ! وتخْشَى الناسَ ؛ واللهُ أحقُّ أنْ تخْشاهُ ؟ !! ؛ ثمّ أنْشَدَ :

تباً لطالِبِ دُنْيا

تُنى إلَيها انصبابَهْ

ما يسْتَفيقُ غَـراماً

بها وفَرْطَ صَبابَهْ

ولـوْ دَرى لَكفَـاهُ

مـا يَـرومُ صُبـابَـهْ

ثمّ إنّهُ لبّدَ عَجاجَتَهُ. وغيّضَ مُجاجتَهُ. واعْتَضَدَ شكْوَتَهُ. وتأبّطَ هِراوَتَهُ. فلمّا رنَتِ الجَماعَةُ الى تحفُّزِهِ. ورأتْ تأهُّبَهُ لُمزايَلَةِ مركَزِهِ. أدْخَلَ كلٌّ منهُمْ يدَهُ في جيْبِهِ. فأفْعَمَ لهُ سَجْلاً منْ سَيْبِه. وقال: اصْرِفْ هَذا في نفقَتِكَ. أو فرّقْهُ على رُفْقَتِكَ. فقبِلَهُ منهُم مُغضِياً. وانْثَنى عنْهُم مُثْنِياً. وجعَلَ يودِّعُ مَنْ يُشيّعُهُ. ليَخْفَى علَيْهِ مَهْيَعُهُ. ويُسرّبُ منْ يتْبَعُهُ. لكَيْ يُجْهَلَ مرْبَعُهُ.

قال الحارِثُ بنُ هَمّامٍ: فاتّبعْتُهُ مُوارِياً عنْهُ عِياني. وقَفوْتُ أثرَهُ منْ حيثُ لا يَراني. حتّى انْتَهى الى مَغارَةٍ. فانْسابَ فيها على غَرارَةٍ. فأمْهَلْتُه ريثَما خلَعَ نعْلَيْهِ. وغسَل رِجلَيْهِ. ثمّ هجَمْتُ علَيهِ. فوجدتُهُ مُشافِناً لتِلْميذٍ. على خبْزِ سَميذٍ. وجَدْيٍ حَنيذٍ. وقُبالَتَهُما خابيةُ نبيذٍ. فقلتُ لهُ: يا هذا !! أيَكونُ ذاكَ خبرَكَ. وهذا مَخْبَرَكَ ؟ ! فزَفَرَ زفْرَةَ القَيْظِ. وكادَ يتميّزُ منَ الغيْظِ. ولمْ يزَلْ يحمْلِقُ إليّ. حتّى خِفْتُ أن يسطُوَ عليّ. فلمّا أن خبَتْ نارُهُ. وتَوارَى أُوارُهُ. أنْشَد:

لبِسْتُ الخَميصةَ أبغي الخَبيصَهْ

وأنْشَبْتُ شِصّيَ في كل شِيصَه

وصيّـرتُ وعْظـيَ أُحبـولَـةً

أُريـغُ القَنيـصَ بهـا والقَنيصَه

وألْجـأني الـدّهْـرُ حتى ولَجْتُ
بلُطْفِ احتِيالي على اللّيثِ عيصَه
علـى أنَّني لـم أهَـبْ صرفَهُ
ولا نَبَضَتْ ليَ مِنْـهُ فَـريصَـه
ولا شـرَعت بي على مَـوردٍ
يُدنّسُ عِـرضيَ نفْسٌ حَريصَه
ولـو أنْصَفَ الدّهـرُ في حُكمِهِ
لَما ملّكَ الحُكْمَ أهلَ النّقيصَه

ثمّ قال ليَ: ادْنُ فكُلْ. وإنْ شِئْتَ فقُم وقُلْ. فالتَفَتّ الى تِلميذِه وقُلتُ: عزَمْتُ عليْكَ بمَن تستَدفِعُ بهِ الأذى. لتُخْبرَنّي مَنْ ذا. فقال: هذا أبو زيْدٍ السَّروجيُّ !! سِراجُ الغُرَباء. وتاجُ الأدَباء. !!.

فانصرَفْتُ من حيثُ أتيتُ. وقضَيْتُ العجَبَ ممّا رأيْتُ !!.».